عرض تاريخ الإسلام وحضارته في مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فوك

الأستاذ الدكتور مانفريد فلايشهامر
جامعة مارتن لوثر بهالة
جمهورية ألمانيا الديمقراطية

Professor Dr. Manfred Fleischhammer
Martin-Luther-Universität Halle-Wittenberg. DDR

من بين الموضوعات التي يعنى بها هـذا الملتقى الثقافي للتعرف على الفكر الاسلامي، هي نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية • ان عدد المصنفات التي تتناول هذه الموضوعات قد ازداد بمرور الأيام ازديادا يتعذر معه على باحث فرد أن يلقي نظرة عليها أو يبدي رأياً فيها •

وغني عن البيان أن بعض هذه المؤلفات يتفاوت تفاوتاً شديدا في الاجادة • فاذا ضربنا صفحاً عن نظرة أحد المؤلفين الأساسية الى الاسلام وحضارته ، التي تتضح من الخطة التي يجري عليها في معالجة موضوع ما، والتي تؤثر تأثيرا جوهريـاً في الغاية مـن أقوالـه ومنحاها ، نقول اذا ضربنا صفحا عن هـذا فان الذي يحدد الى درجة كبيرة جودة أقواله هي معرفته أو جهله بلغة ، أو بلغات المصادر التي لا بد له من الرجوع اليها في بحوثـه ودراساته • ان المؤرخ الذي لا علم له بواحدة أو أكثر من اللغات التي كتبت بها المؤلفـات الأساسية عن الاسلام وحضارته ، وأخص هنا بالذكر اللغة العربية ثم الفارسية والتركية ، مثل هذا المؤلف يجد نفسه منذ البدايـة في موقف حرج ، اذ لا مفر له من الاعتماد على مؤلفات زملائه من العارفين بعلوم الشـرق ولغاته وعلى قلة من المصادر الاسلامية المترجمة، وبذلك لا يسعه الا أن ينقل عن هؤلاء دون أن يكون في مقدوره امتحان معلوماتهم بمعارضتهما بالنصوص الاصلية • وفوق ذلك فانه عرضة دائماً لخطر التخلف عـن ركب الدراسـات الشرقية •

اسمحوا لي بعد هذه اللمحة القصيرة عن موقف المؤرخ الذي يشتغل بالاسلام وبحضارته أن أخوض في موضوع محاضرتي الأصلـي • انني أود ، بقدر مـا يسمح لي الوقت ، أن أتحدث على سبيل الاختصار عن مؤلفات المستشرقين كارل بروكلمان ويوهان فوك التي تدخل في موضوعنا هذا • وعندمـا أقوم بهـذا ، فانني على يقين بأن أكثركم قد سمع بهذين العالمين • ذلك أن بعضاً من أنفس مؤلفاتهم قد نقلت جزئياً أو كلياً الى العربية منـذ سنوات • وأقصد بذلك: « تاريخ الأدب العربي» «Geschichte der arabischen Litteratur» و « تاريخ الشعوب الاسلامية » Geschichte der islamischen Völker und Staaten

لكارل بروكلمان ، و « العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب » Arabiya, Untersuchungen zur arabischen Sprach-und Stilgeschichte ليوهان فوك ·
وسآتي على هذه المؤلفات بالتفصيل في أثناء كلامي · وليس هذان العالمان مؤرخين بمعنى أنهما لم يشغلا الا بتأريخ الاسلام وبتأريخ حضارته فحسب ، بل هما لغويان ومشتغلان بالعلوم الاسلامية ، لا سيما يوهان فوك ، كما يظهر جليا من كتبهما ومقالاتهما المنشورة في مجلات الاستشراق التي تنتمي بالمعنى الواسع الى مجال التأريخ في تخصصهم ·

كان كارل بروكلمان (ولا يزال) فوك منذ سنوات طويلة من أعضاء هيئة التدريس في جامعة مارتين لوثر بمدينة هالة · لقد لقي هذان العالمان جزاء أبحاثهما تكريماً عظيماً ، فانتخبا عضوين أصليين وعضوي شرف في كثير من جمعيات الاستشراق في ألمانيا وخارجها · ومن ذلك تعيين كارل بروكلمان عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق ـ المجمع العلمي العربي سابقاً ـ وتعيين يوهان فوك عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة · وليس هذا فحسب ، وانما منحت حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية بروكلمان في عام ١٩٥١ وفوك بعد ذلك بخمس سنوات جائزة الدولة تقديرا لجهودهما في تطوير فروع تخصصهما العلمي ·

ولد كارل بروكلمان سنة ١٨٦٨ في مدينة روستوك · وقد قادته ميوله العلمية المبكرة وموهبته اللغوية البارعة الى الاتجاه لدراسة الشرقيات واللغتين اليونانية واللاتينية والتأريخ · وفي عام ١٨٩٠ نال درجة الدكتوراة في الفلسفة باشراف تيودور نولدكه Theodor Nöldeke الذي قدم للدراسات العربية في كتابه « تأريخ القرآن » Geschichte des Qorans دراسة رائدة عن سوره · كان موضوع الرسالة التي نال بها بروكلمان درجة الدكتوراه هو « صلة كتاب الكامل في التأريخ لابن الأثير بكتاب أخبار الرسل والملوك للطبري » Das Verhältnis von Ibn-el-Atirs Kamil fit-Ta'rih zu Tabaris Ahbar er rusul wal muluk وشغل بروكلمان بعد ذلك خلال حياته الطويلة منصب أستاذ اللغات السامية وأيضاً الدراسات التركية من بعد ، في كثير من الجامعات ، من بينها مرتين في جامعة هاله لمدة طويلة · وكانت المرة الأولى في مرحلة ما بين ١٩١٠ و ١٩٢٢ · وبعد أن أحيل الى المعاش من احدى الجامعات ، عاد في سنة ١٩٣٧ مرة أخرى الى هاله ، لأن فيما تضمه مكتبة جمعية المستشرقين الالمانية Bibliothek der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft بهذه المدينة من مراجع خير عون له في أبحاثه ودراساته · وعمل أستاذا مرة أخرى بجامعتها منذ عام ١٩٤٧ الى أن توفي في عام ١٩٥٦ ·

لقد حقق بروكلمان في أثناء اشتغاله بالبحث انتصارات باهرة في مختلف فروع الاستشراق · تشهد بذلك القائمة التي وضعها يوهان فوك بمؤلفاته التي تربو عناوينها على ٥٥٠ ، ولم يؤهله لذلك قدرته التي لا تبارى على العمل فحسب ، وانما قبل كل شيء ذاكرة قوية تحفظ كل شيء بعد القراءة الأولى ، وبصيرة نافذة وميل الى الترتيب أمكنه فيما يبدو من السيطرة على مواد هائلة دون عناء · وأخيرا القدرة على صوغ أفكاره في يسر وسرعة ، بحيث استطاع غالباً أن يدفع بالمسودة الأولى كما هي الى المطبعة ·

وسأذكر هنا طرفاً يسيرا من بين المؤلفات العديدة التي جلبت له الشهرة ، ولا تدخل في مجال الدراسات العربية والاسلامية ، ففي الساميات ألف « الأساس في نحو اللغات السامية المقارن » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen فسر فيه المادة اللغوية السامية الهائلة باستخدام مناهج البحث اللغوي التاريخي، كما عرضها عرضاً مرتباً واضحاً • كان كتاب « الأساس » أحب كتبه اليه ، ولم يفقد الكتاب مكانته حتى اليوم رغم كل ما طرأ على البحث من تغير • وقد نهض ببحث اللغة السريانية القديمة وآدابها بمعجمه «القاموس السرياني» Lexicon Syriacum وبنحوه الذي طبع مرات عديدة •

ومن بين مؤلفاته التركية يبرز كتابه « مفردات التركية الوسيطة حسب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري Mitteltürkischer Wortschatz nach Mahmud al-Kasgaris Divan lugat at Turk ومن مؤلفاته الأخيرة « نحو التركية الشرقية للغات الأدبية الاسلامية بآسيا الوسطى Osttürkische Grammatik der islamischen Litteratursprachen Mittelasiens

والان نستعرض الكتب التي ألفها بروكلمان في مجالي العربية والاسلام والتي تهم موضوعنا بصفة خاصة • كان بروكلمان مولعا في المرتبة الأولى بعلم اللغة وفقهها •

وكما فعل في سائر الفروع الأخرى المذكورة ، فقد أسهم أيضاً في هذين المجالين بتيسيره الاستفادة من المصادر التي يعتمد عليها البحث في الاسلام وحضارته • فألف كتاباً في نحو العربية الفصحى طبع حتى اليوم ١٧ مرة • ونشر ديوان لبيد وكتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، واشترك في تحقيق كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، كاتب الواقدي • غير أن أهم مآثره في هذا الحقل هو من غير شك كتابه « تاريخ الأدب العربي » • ذلك المؤلف الضخم الذي ظهر أولا في مجلدين بين عامي ١٨٩٧ و ١٩٠٢ ، ثم استكمل بذيل من ثلاثة مجلدات في السنوات ما بين ١٩٣٧ و ١٩٤٢ • وأعيد طبعه في ١٩٤٣ و ١٩٤٩ • وبهذا الكتاب أقام بروكلمان بحث الأدب الاسلامي العربي للمرة الأولى على أساس وطيد • ولما كان بروكلمان يدرك أنه ليس من الممكن تبعاً لحالة البحث العلمي آنذاك أن يعرض لأطوار نمو الأدب العربي الداخلية ، فقد صح عزمه على أن يفهرس الأدب العربي الذي لا يزال موجودا اليوم مطبوعا أو مخطوطا فهرسة كاملة بقدر الامكان وأن يذكر بايجاز سير المؤلفين • ويستحق الجزء الثالث من الذيل الذي ظهر عام ١٩٤٢ اهتماماً خاصاً ، ذلك أن بروكلمان قدم هنا عرضاً شاملا لتطور الأدب العربي الحديث ابتداء من العقد الثامن من القرن ١٩ • فهو لم يعط هنا مجرد ملاحظة قصيرة عن المؤلف وعناوين مؤلفاته ، وانما بسط محتويات كثير من الكتب ، وأشار الى النظائر والى النماذج الأدبية • التي احتذيت وعلق على لغة المؤلف وأسلوبه وحاول في كثير من الحالات أن يقيم هؤلاء تقيماً أدبياً •

هذا الاشتغال الواسع بالأدب العربي والمعرفة التامة به هما اللذان دفعا بروكلمان في وقت مبكر الى الاهتمام بالخلفية السياسية والحضارية لهذا الأدب ، الأمر الذي أفضى به بالضرورة الى العلوم الاسلامية • ومن ثمة أخذ منذ عام ١٨٩٥ الى ١٩١٤ يطلع بانتظام

عن أحدث المؤلفات عن تأريخ الاسلام في « حوليات علوم التاريخ » Jahrbuch der Geschichtswissenschaft وفي عام ١٩١٠ كتب في اطار تأريخ للعالم وصفاً للاسلام منذ ظهوره الى العصر الحديث. وباعادة النظر في هذا الوصف ظهر عام ١٩٣٩ الكتاب المشهور « تأريخ الشعوب الاسلامية»، وظهرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٤٣. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ترجم الى العربية والفرنسية والانجليزية والبولندية والتركية.

ذكر بروكلمان في مقدمة الكتاب أنه نظرا لحالة البحث العلمي فانه لا يزال من قبيل المخاطرة كتابة تأريخ للشعوب الاسلامية ودولها ، حيث استفاد بالجيد من كتابات زملائه في المواضع المختلف فيها .

يبدأ الكتاب بوصف الأحوال في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ، ثم يصور حياة النبي العربي ويشرح تعاليمه . وبعد ذلك يصف الأحداث في عصر الخلفاء الراشدين ثم يختم بعرض تأريخ الدولة الأموية . يعالج الجزء الثاني الامبراطورية الاسلامية في عهد العباسيين منذ قيامها ثم انقسامها الى عدد من الدول المستقلة حتى سقوطها على يد المغول. وموضوع الجزء الثالث هو قيام الدولة العثمانية وازدهارها ثم اضمحلالها البطيء حتى نهاية القرن ١٨ . أما الجزآن الأخيران من الكتاب فيعالجان باسهاب موقف الاسلام وتطوره في القرن ١٩ ، ثم الوضع في الشرقين الأدنى والأوسط ، وشمالي أفريقيا في مرحلة ما بين الحربين العالميتين .

لم يقتنع بروكلمان ، كما يبدو لأول وهلة من هذا السرد لعناصر كتابه ، باعطاء فكرة عامة عن التطور السياسي لهذه البقعة . وانما لم يدع فرصة تمر دون أن يشير الى أوجه التطور المختلفة التي حدثت في الاسلام ابان ١٣٠٠ سنة . وبهذا يتناول التيارات والمذاهب في نطاق الدين وفي الفقه الوثيق الصلة بالدين، وفي الأدب والفن ، مثلما يشير الى الصلات بين تلك الظواهر وبين العمليات الاجتماعية الجارية وقتذاك من ناحية ، وبينها وبين العوامل السياسية المؤثرة فيها من ناحية أخرى . لقد أولى بروكلمان ، في الجزء الأخير من كتابه ، عناية خاصة ليقظة الوعي السياسي والثقافي عند الشعوب الاسلامية ولا سيما العرب ، هذه اليقظة التي تتجلى بوضوح في الكفاح الطويل ضد الاستعمار الأوربي ، وما صاحبه من نهضة في الاسلام وما يتصل به من حضارة في مختلف أنحاء العالم العربي ويتكرر في ثنايا هذا الكتاب كما يتكرر في المواضع المناظرة من كتاب « تأريخ الأدب العربي » تأييد بروكلمان للاماني السياسية والحضارية للامة العربية وللشعوب الاسلامية ولجهودها التي داوم على متابعتها . ذلك التأييد الذي أكسبه شهرة وصيتا في العالم الاسلامي .

وتكمن قيمة هذا الكتاب في وصفه لتاريخ الاسلام وحضارته وصفاً رزيناً موضوعيا، خالياً من التعصب والتحامل . وهذه القيمة لا يغض منها اليوم تقدم البحث التأريخي وما يلزم عنه من تعمق النظر في جوانب عدة ، ولاما تلقاه بعض آراء بروكلمان وأحكامه من نقد بسبب تغير وجهة النظر الى العوامل المحركة في التأريخ .

★ ★ ★

بعد أن وفينا بروكلمان بعض ما يستحق نأخذ في الحديث عن يوهان فوك ومؤلفاته المتعلقة بتفهم الاسلام وتأريخه وحضارته ٠

يبلغ يوهان فوك من العمر الان ٧٨ سنة وهو أستاذ متقاعد لفقه اللغات السامية والعلوم الاسلامية يقيم في مدينة هاله ويعمل بها ٠ بدأ فوك دراساته عام ١٩١٣ في جامعة هاله مع كارل بروكلمان ٠ ثم انتقل حينئذ الى فرانكفورت (على نهر ماين) ماراببرلين وهناك نال درجة الدكتوراة في الفسفة ببحث أدبي تأريخي عن ابن اسحاق مؤلف سيرة النبي
Muhammad Ibn Ishaq, Literarhistorische Untersu chungen باشراف يوسف هوروفتس Josef Horovitz وهو من أحسن العارفين بالقرآن والأدب العربي القديم ٠ وفي عام ١٩٣٠ لبى دعوة للقيام بالتدريس لمدة خمس سنوات في دكا عاصمة جمهورية بنجالادش حالياً ٠ وفي عام ١٩٣٨ قدم الى مدينة هاله أستاذا بجامعتها ٠

وقد بقي فوك مخلصاً في كل أعماله لذلك الاتجاه الذي بدأ في منشوراته الأولى وفي رسالته للدكتوراه : وقوام ذلك الاتجاه هو الربط بين المنهج اللغوي المتين وبين التعمق في معالجة المسائل التي أصبحت على مر التأريخ مهمة لفهم الاسلام وحضارته ٠ ظهر كتابه النفيس الموسوم ب « العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب » عام ١٩٥٠ وبعد ذلك بعام ترجم الى العربية ثم الى الفرنسية في عام ١٩٥٥ ٠ ان هذا الكتاب لا يدل فحسب على معرفته الواسعة بالعربية في عصورها المختلفة ، وانما يدل كذلك على احاطته الواعية بالتطور الروحي والعقلي للاسلام ٠ دوّن فوك بطريقة بارعة في هذا الكتاب ، مستعيناً بطائفة ضخمة من المصادر والمواد ، تأريخ اللغة العربية الفصحى منذ بدايتها حتى العصر السلجوقي مشفوعا بنظرة الى أحوالها في العصر الحديث ٠ ولكتابه هذا يدين المشتغلون بالعربية بالفضل ، اذ أتاح لهم القاء نظرة على الميكانيكية التي أدت عبر العصور الى التغيرات الداخلية في بنية اللغة العربية ٠ وكان من نتائجها ما اصطلح عليه فوك مذ ذاك باسم « العربية الوسطى » Mittelarabisch .

ثمة عدد آخر له من الدراسات التي تنحو جميعاً هذا المنحى وبحثت فيها مسائل خاصة ٠ أذكر على سبيل المثال : « الفهرست » لابن النديم وتأريخ رواية كتاب « الصحيح » للبخاري أو اضافات الى طبعة « كتاب الاثار الباقية » للبيروني ٠

وهذه الأبحاث بالغة الأهمية في تفاصيلها ونالت لذلك الاعجاب والتقدير ٠ ولعله أدخل في موضوع بحثنا أن نشير الى ثلاثة مقالات والى بحث شارك به في تأليف مرجع ، وظهرت هذه الدراسات في مدى ٢٥ سنة وشغل فوك فيها ببعض المسائل الأساسية في العلوم الاسلامية ٠

ظهرت أولى هذه المقالات عام ١٩٣٦ تحت العنوان المبدئي « أصالة النبي العربي » Die Originalität des arabischen Propheten. ZDMG 90 (1936) . وكانت نقطة البداية في بحثه هو تحليله النقدي لمؤلفين ظهرا قبل ذلك بقليل ويطبقان مناهج بحث سابقة غرضها

اثبات تبعية محمد للديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية • وقد حاول فوك أن يجيب على مسألة اذا ما كان من الممكن على هذا النحو فعلا أن ننصف شخصية النبي وتعاليمه ونفيه حقه • وفي أثناء كلامه بذل فوك كل ما في وسعه دفاعاً عن أصالة محمد وأهمية شخصيته وتعاليمه ، موردا أدلة مقنعة على ذلك • ويرى فوك في الاستمرار والنجاح اللذين أتيحا للاسلام وحضارته عبر القرون خير دليل على أصالة التجديد الذي دخل التأريخ بظهور محمد •

وعلى أساس هذه الآراء فحسب كان من المنطقي أن يحاول فوك في مقال ظهر بعد ذلك بثلاث سنوات بعنوان « دور النقل في الاسلام » Die Rolle des Traditionalismus im Islam. ZDMG 93 (1939) بيان أهمية واحد من تلك المبادىء التي لعبت دورا هاماً في تأريخ الاسلام وتوضيح فعاليته • ويقصد فوك بالنقل في هذا الصدد : الحقيقة الملحوظة خلال التأريخ الاسلامي كله ، ألا وهي نظرة المسلم الدائمة الى السنة النبوية والى الأسوة الحسنة » التي يتحدث عنها القرآن في الآية ٢١ من سورة الأحزاب ، على أنهما خير دليل يجب اتباعه في الحياة الدنيا والمعاملة • ويبين فوك في الحاح كيف يتجلى هذا المبدأ في كثير من كتب الأدب ، وأنه أحد العلل الأساسية وراء الوحدة الشاملة للحضارة الاسلامية على الرغم من اختلاف الزمان والمكان ومما ينشأ عن ذلك من خواص •

وفي عام ١٩٥١ نشر فوك مقالا بعنوان «محمد ـ شخصية وتأسيس دين » Muhammed - Persönlichkeit und Religionsstiftung. Saeculum III (1951) كتب لعامة القراء • وشغل في هذا المقال مرة أخرى بمجموعة المسائل التي عالجها في مقاله حول أصالة النبي العربي سالف الذكر • وبعد عرض موجز للآراء المختلفة التي قيلت عبر التاريخ في شخصية محمد وأثره ، يؤكد من جديد الملامح التي تتفرد بها شخصية محمد والدين الاسلامي الذي بشر به • وبهذا نشأت دراسة بارعة عن واحدة من أهم الشخصيات وأروعها في تأريخ العالم ، وتقرن بالسير الأخرى التي ألفت عن محمد •

وفي سنة ١٩٧١ ظهر بحث شارك به في « مرجع الدراسات الشرقية » Handbuch der Orientalistik تحت عنوان « دين الاسلام السنّي » Die Religion des Sunnitischen Islams وفي هذا البحث سعى فوك الى أن يعرض في ايجاز ، ولكن بطريقة تأسر القلوب ، أحد المذاهب الهامة في الاسلام • ولكي ندرك سعة المادة التي استوعبها هنا بحسبنا أن نذكر باختصار عناوين الفصول واحدا بعد الاخر مع مراعاة ما بينها من تلاحم : ديانة القرآن ، الامامة وانشقاق الشيعة ، بداية المذهب السنّي ، القدَرية والجبرية والجهمية ، المعتزلة ، احياء السنة ، علم الكلام السني ، القدرية والجبرية والجهمية ، المعتزلة ، احياء السنة ، علم الكلام السني ، ابن حزم ، السياسة الدينية عند السلجوقيين الأوائل ، الغزالي ، ابن تومرت ، ابن تيمية ، الوهابية ، المعتزلة المحدثون ، التجديد الاسلامي في مصر ، محمد اقبال والتجديد الاسلامي ـ الهندي ••

★ ★ ★

واذا شئنا الآن ، في الختام أن نحاول في بضعة كلمات أن نتكلم على أهمية أو قيمة ما أسلفنا ذكره من مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فوك في تاريخ الاسلام وحضارته فان ذلك لا يستقيم لنا الا بالنظر الى هذه المؤلفات في اطار التأريخ الطويل لدراسة اللغة العربية والاسلام في أوروبا · ان يوهان فوك نفسه قدنشر كتاباً في عام ١٩٥٥ ، أسماه «الدراسات العربية في أوربا الى بداية القرن العشرين » Die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts ورسم في هذا الكتاب صورة واضحة لتطور هذا الفرع من العلوم عرض فيها الآراء المختلفة حول الاسلام وشخصية نبيه ابتداء من العصور الوسطى في أوربا ثم في عصر الاصلاح الديني والتنوير والرومانسية حتى عصر النظر التأريخي في القرن ١٩ ·

وبمقارنة هذه الدراسات بالآراء التي ظهرت عند هذين العالمين حول الاسلام وحضارته نلحظ التقدم الواسع الذي حدث بمرور الزمن · لقد أرسى بروكلمان بكتابه « تأريخ الأدب العربي» أسساً وطيدة ليقوم عليها البحث من بعد · وقدم لجمهور كبير بكتابه « تأريخ الشعوب الاسلامية » صورة تتفق مع حالة البحث في عصره حول الاسلام وحضارته في نطاقه الواسع وكذلك لأهميته في تأريخ الانسانية · وأضاء فوك بأبحاثه الممتازة حول المسائل الأساسية في الموضوع نفسه جوانب بعيدة الغور · وقد أسهم كلا العالمين اسهاماً هاماً في التغلب على الاراء القديمة المتحاملة نوعاً ما التي عاشت طويلا في ثنايا البحث الاوربي · وطورا بذلك معرفتنا تطويرا جوهرياً · ان المستشرقين بجامعة هاله فضلا عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية ليفخرون بالانجازات العلمية التي حققها هذان العالمان ، وسيواصلون تمحيص نتائج أبحاثهم في تأريخ الاسلام والحضارة الاسلامية ، والافادة منها ·

د· مانفريد فلايشهامر

□ ● □